الاسلام فى فارس

للأديب حسن حبشى

لعل أبلغ معجزة للاسلام هى تلك السرعة التى وسم بها انتشاره فى رحاب المعمورة ، حتى لقد خفق لواؤه فى مدي قرن من الزمان على كثير من بلدان آسيا وإفريقيّة ، وتغلغلت شريعته وحبه والايمان به فى نفوس قوم درجوا على الشرك ، وكانوا لا يألون جهداً — هم وأسلافهم من قبل — فى صدّ كل عادية عنه . ومن مظاهر هذه المعجزة إسلام التتر بعد أن كاد الاسلام أن يحتضر من خطبهم وتدميرهم ، فلقد كانوا « المصيبة الكبرى التى عقّمت الأيام والليالى عن مثلها ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها[1] » فاذا هم — بعد اعتناقهم إياه — من أكبر الذّابين عن حياضه ، المدافعين عن بيضته . ويذهب السير توماس أرنولد فى تعليله لهذا الانتشار والسبق الذى اختُص به الاسلام دون غيره إلى ما اتّسمت به العقيدة الاسلامية من بساطة لا تعقيد فيها ، وإلى وحدانية الله ، وإلى أن محمداً عبده ورسوله[2]

لقد درج الاسلام في بلاد الحجاز ، ثم ما لبث أن اتسعت رقعته وامتدت فتوحه شرقاً وغرباً فأصبحت العراق وفارس ومصر والشام وفلسطين وبلاد الخزر وإفريقية والنوبة والهند إمارات إسلامية قد انتقلت من الشرك والاضطهاد والنضوب الفكرى إلى وحدانية مشرقة ، وعدل أظل الجميع بفيئه ، ونهضة اجتماعية وذهنية غيرت معالم الحياة بأسرها . ولا غرو فالاسلام في جوهره دين عقلى بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى[3]

وتاريخ الاسلام فى مبدئه هو تاريخ تلك الأقطار المفتوحة ، وحسبنا فى هذا البحث الموجز أن نرى مدى انتشاره فى إيران وإن ذهب أهلها شيعاً وتباينوا عقائد

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ) ج ١٢ ص ١٦٤ - ١٦٥

(٢) Sir Thomas Arnold : Preaching of Islam (Luzac 1935. P. 413.

(٣) E. Montet : La propagande chrétienne et ses advers-aires musulmans (Paris 1890) P. 17

ويرتبط تاريخ إيران الاسلامية أيما ارتباط بهذه الجماعات التى كانت تفد عليها متاجرة أو مهاجرة من جهة ، ومن جهة أخرى بتاريخ الملوك والخانات الذين كان لبعضهم فضل الجهاد فى سبيل نشر الدين ، وإن وجدوا فى كثير من الأحيان إقبالاً من الشعب نفسه يرجع فى جرثومته إلى أسباب عدة ليس هذا مجال بحثها . كما أن بعض القواد لم يدخر وسعاً فى سبيل نشر الاسلام فكان ابن القاسم فاتح بلاد الهند داعيةً من دعاته ، وأحد الحريصين على بث مبادئه العاملين على بسط نفوذه ، فلقد عرض على أمراء الهنود اعتناقه[1] ، ولم يكن الطمع فى الغنيمة فحسب هو الدافع للجند العرب المسلمين على الاستبسال والاستماتة فى هذه الفتوح العظيمة[2] ؛ تلك الروح التى تتمثل فى قول خالد ابن الوليد حين لاقاه أهل الحيرة فقال لهم « أدعوكم إلى الاسلام فان أنتم فلتم فلكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، وإن أبيتم فأعطوا الجزية ، فان أبيتم فقد أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة[3] »

* * *

لقد كان فتح العرب لبلاد فارس حادثاً جديداً فى تاريخ الاسلام من الناحيتين الفكرية والاجتماعية ، كما كان له أثره القوى فيما بعد — فى الناحية السياسية والدينية — لما ظهر عند أهله من هوى عنيف للمذهب الشيعى ، وإن أرجع بعض المستشرقين هذا الميل إلى زواج الحسين بن علىّ « بشاه بانو » إحدى بنات يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان ، ومن زعماء هذا الرأي الأستاذ جولد تسيهر .

دخل المسلمون هذه البلاد الغريبة عنهم فى حضارتها وتاريخها ونظمها السياسية وتفكيرها ، فكان ثمت احتكاك تولدت عنه نزعات جديدة فى كل هذه الأمور ، ولعبت العصبية القومية دوراً خطيراً على مسرح الحياة العامة فكانت دعامة الدعائم فى قيام الدولة العباسية التى اتخذت عاصمتها فى بلدٍ ينزع أهله إلى تأييدها[4]

(١) Wiot : Hist. of India. Vol I P. 175

(٢) H. A. R. Gibb : The Arab Conquests in Central Asia

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج (مصر ١٣٠٢ هـ) ص ٨٤

(٤) Cf : Le Strange : Bagdad under the Abbasid Caliphate ch I. pp. 1—h.

كانت بلاد الفرس وقت أن دخلها العرب مللاً متباينة ، ونحلا مختلفة متنازعة ، فهناك الصابئة والمجوس وأتباع مانى وزرادشت ، وهناك أهل الكتاب من يهود ونصارى ، فكان القوم بين مشرك ووثنى وموحّد ومثلث ، فلم يكن الاضطراب سياسيا فحسب ، بل كان دينيا كذلك . فوجد العرب هذه البلاد على حال من الفوضى السياسية والاجتماعية والدينية ، فكان العبء عليهم ثقيلا ، وكانت التركة بين أيديهم تتطلب منهم سياسة حكيمة ماهرة ، حتى يستطيعوا أن يهيئوها لغد يزهو على الأمس ، ويجعلوا من أهلها دعاة للحنيفية السمحاء .

لقد مرت القرون تترى والقوم مقيمون على الشرك وعبادة النار والنجوم ، فما أهلّ الاسلام عليهم بنوره حتى تسارعوا زمراً لاعتناقه والدفاع عنه ، فكان أئمة الدين وجلة علمائه من أهل فارس حتى لقد لاحظ ذلك ابن خلدون فقال : « من الغريب الواقع أن حملةَ العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر وإن كان منهم العربي فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربيــة وصاحب شريعتها عربى [1] » وكان أشد المدافعين عن الدين وعن العرب من رجال الفرس حتى فى الأوقات التى ظهرت فيها العصبية القومية بأجلى معانيها ، وفى الوقت الذى أطلت فيه الشعوبية تزعم ما تزعم من جحود ونكران للواقع ، وكأن هذا الميل القوىّ للاسلام لم يرق فى نظر البعض فذهب Dozy إلى أن مرجع اعتناق الفرس للاسلام أنهم ألفَوا فى القرآن الأركان الأساسية لديانتهم القديمة وإن اختلفت قليلا ، فلم يكن من العسير على الفارسى أن يقبل على عبادة اهرمزدا واهريمان إلهى الخير والشر حيث استترا وراء كلمتى الله وإبليس فى الديانة الجديدة ، كما يقول إن الاسلام اتفق والوثنية الفارسية القديمة فى القول بخلق الانسان ووجود الملائكة والبعث يوم القيامة وعودة الروح والجسم ثانية وفى فكرة الجحيم والجنة ، فالتقت العقيدة القديمة والدين الجديد فى هذه النواحى [1] . وغرض دوزى من ذلك الطعن فى إسلام الجماعة الأولى من أهل فارس ، وتجاهل هذه الروح الكريمة التى امتاز بها الاسلام وللتى لا زال يغزو بها القلوب حتى فى عصر المادة فلا كبرياء ولا أرستقراطية مستهجنة [2] »

لم يقتصر فضل الاسلام على الناحية السياسية وانتشال البلاد من التدهور الاجتماعى ، بل تعداها إلى الناحية الدينية بين القوم وغيرهم من أهل الكتاب من النصارى واليهود ، فعامل الجميع معاملة حببت الجماعة فيه ، ولم يرغمهم على التصديق به والايمان برسالته وإنما حاجّهم فان أبوا فليس إلا الجزية ، إذ « هى واجبة على جميع أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة [3] »

ولم تكن هذه الجزية دينية بحتة ، وإنما كانت كذلك للقيام بالمحافظة على دافعيها وضمان سلامتهم ، فى ظل هذا النظام الجديد الذى لم يألفوه من قبل أيام دولة الأكاسرة التى استبدت وبطشت بالمسيحيين وعصفت بهم ولم تحترم شعورهم ، بل كانت شديدة الوطأة عليهم فلاقى من عنتها اليعقوبيون والنسطوريون ألواناً من العذاب والتنكيل واضطربت أمورهم فى أيامها . أما المجوس فقد اكتفى العرب منهم بالجزية ، فلقد قال أبو يوسف [4] إنه « ذكر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه قوم يعبدون النار ليسوا يهودا ولا نصارى ولا أهل كتاب (يعنى المجوس) فقال عمر ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ؟ فقام عبد الرحمن بن عوف فقال أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » وذكر أنه « كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن

(١) ابن خلدون : المقدمة (طبعة المطبعة البهية بمصر) ص ٤٩٩

(١) Dozy : Essai sur l'hist de l'islamisme (Lyden) P. 156.

(٢) راجع فى الفخر (طبعة مطبعة الموسوعات ١٣١٧ هـ) ص ٧٣ — ٧٤ قصة ورود نبأ انتصار العرب فى فتح فارس إلى عمر بن الخطاب ففيها أبلغ الدلالة على الديمقراطية العربية

(٣) أبو يوسف : نفس المرجع ص ٦٩

(٤) أبو يوسف الخراج ص ٧٤

ساوى أن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، له ذمة الله وذمة رسوله فمن أحب ذلك من المجوس فهو آمن ومن أبى فعلية الجزية [1] »

يقول الأمير كايتانى Caetani « لقد كان الاضطراب المعنوى الذى ملأ أذهان المسيحيين يسير جنباً إلى جنب مع الفوضى السياسية فى الدولة ، وإذ شغلهم توالى نزول هذه الكوارث والتدهور الخلقى الذى حاق بهم من جراء هذا الصراع العنيف بين المذاهب المتنافرة الموجودة بينهم فلقد مالوا إلى هذا النمط الذهبى العجيب الذى يسهل على العقيدة الجديدة أن تتمكن فيه . ولقد كان أهل فارس — وخاصة الأجناس السامية — فى نفس هذه الحال الذهنية مما جعلهم يرحّبون بالثورة الاسلامية التى سرعان ما أزالت من طريقها فساد الماضى ، وساعدها على ذلك ما امتازت به العقيدة الجديدة من بساطة خالصة ، هيأت النفوس لعهد جديد فائض بالآمال وخلصت القوم من الرق » ... لقد شهد بذلك كيتانى وهو من هو فى دراسته للتاريخ الإسلامي والعقلية الاسلامية [2]

وكان دخول الاسلام بلاد فارس مؤذناً بعصر جديد من التحرر الفكرى ، كما رأى فيه المسيحيون مخلصاً لهم — كما يقول أرنولد — من استبداد ملوك آل ساسان ، ولم يركن المسلمون إلى الشدة والعنف فى سبيل بث مبادئ دينهم هناك ، وما كان إسلام القوم — من مجوس وصابئة ومانوية — عن طريق السيف إذ (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وما كان الاسلام وهو دين العقل ليحاول أن يخرج عما رسمه من حدود النقاش. وحسبه أن يعرض للأمر من جميع نواحيه فلا يزال يدعمه بالحجة والبرهان الصادقين فى منطق مستقيم حتى يأخذ به من اتبع العقل ولم يُكابر فى الحق . وإذا كانت هناك بعثات تبشيرية فإنها لم تكن تسير على خطة دبرها البعض ، وإنما هيأتها الظروف والملابسات وطبيعة الحياة كما كانت مدفوعة بإيمانها الصادق. وكان أغلب هذه الجماعات التى قامت بالتبشير فى فارس والهند وبلاد آسيا الوسطى وبلاد ما وراء النهر من التجار الذين كانوا حلقة اتصال بين الوثنيين وبين الاسلام أو بين ماض مشرك ومستقبل لا يقر إلا بالوحدانية (قل هو الله أحد الله الصمد) ترفع عن الماديات (لم يلد ولم يولد) وجلّ عن كل ما يخاله الذهن البشرى القاصر عن إدراك ذاته (ولم يكن له كفواً أحد) ؛ فالعامل الأساسى فى تاريخ الفتوح الاسلامية كما يقول الأستاذ جب إنما هو هذا التبادل الدائم بين أهل الأقطار المفتوحة وبين العرب [1]

حسن حبشى

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٥ — ٧٦

(٢) Sir T. Arnold : Op. cit. P.P. 207—208

(١) H.. A. R. Gibb : Op. cit. P. 4

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا